لبناني مجهول

الاخ ساروفيم ڤكتور (١٨٧٩-١٩٢٢)

من اخوة المدارس المسيحية «الفريز»

بقلم ا. م. ب.

١

مقدمة

سماء شرقنا العزيز سماء رائعة الجمال ، صافية الاديم ، كأنها مرآة تنعكس فيها متجلية كمالات الحق سبحانه في خلائقه. بهاء نور الشمس ، ونقاوة اديم السماء ، واعتدال الطقس ، وصفاء الليالي المقمرة المرصعة بما لا يُحصى من النجوم والكواكب ... تجعل لشرقنا العزيز قيمة لا نقدرها قدرها ، ما لم ننأ عنه مرغمين او مختارين.

هذا واذا انتبهنا لما ثبت من تأثير احوال البلاد في نبوغ اهلها ، رأينا هذا التأثير بالغاً شأوه في وطنيينا اللبنانيين ، اذ نبغ منهم في كل عصر من يفتخر بهم ويُهتدى بهديهم من رجال سيف وقلم وسياسة وادارة وصناعة وتجارة.

لكنّ هناك فئة من اللبنانيين لم يُبشروا من زوايا النسيان . ولا غروَ ، فانهم قضوا حياةً خفية ، على مثال مخلّص البشر فادينا الالهي ، ولاسيما من كان منهم قد انضووا تحت لواء رهبانية أجنبية المنشأ . فعُرفوا كأجانب بلباسهم وطواهرهم ، فظلوا مجهولين.

ومن هؤلاء الافاضل المجهولين : رشيد بن يوسف عطاالله ، او الاخ ساروفيم ڤكتور من اخوة المدارس المسيحية . فقد أجبت ، بداعي المحبة وعرفان الجميل ، ان اقدمه مثال صلاح واجتهاد ، لابناء وطنه الكرام بنوع خاص ، وللناطقين بالضاد باسرهم ، وقدوة للاساتذة والمهذبين ومحبي اللغة العربية والمعجبين بها.

حياته

اصل اسرته

عائلة عطاالله شوفية لبنانية محضة . ووالدا الاخ سارونيم ، يوسف عطاالله وزوجينا نصرالله ، من قرية عين كسور بالقرب من عبيه . وهناك بين الخضرة والمناظر الجميلة التي يمتدُّ النظر فيها الى البحر وبيروت عاصمة لبنان ، وسهل خلدة والدامور حتى صيدا ، هناك رأى النور رشيد بن يوسف عطاالله سنة ١٨٧٩ . وسكان عين كسور وعبيه ، مزيج من النصارى والدروز ، وقد اشتهروا بالاتفاق التام والوئام المتواصل .

وفي عبيه ، على الرغم من وجود مدرسة الاميريكان ، لم يرسل والدا رشيد كبيرهما الا الى المدرسة الكاثوليكية ، حرصاً على ايمان حبيبهما ورغبة منهما في حفظه بقربهما نظرًا لقرب المدرسة من البيت .

ولسبب تجهله ، هبط رشيد مع أسرته سنة ١٨٩٢ الى بيروت ، مدينة العلم ، وميدان العمل الفسيح ، اذ ذاك كما هي اليوم . وهنا اتسع المجال للفتى رشيد ، فنال ما كان يتمناه من السهولة في اكتساب العلوم والتدرُّب على الفضيلة .

فتوته (١٨٩٢ — ١٨٩٤)

ويظهر ان رغبة رشيد في احراز العلم كانت من جملة الاسباب التي حدت بالوالدين الى استيطان بيروت ، غير حاسبين للنفقات والاغتراب عن القرية المحبوبة حساباً . اذ لم يبلغوا المدينة الا سعيا له في مدرسة خليقة بذكائه واجتهاده ، بها يتمّ لهما ما علقاه من الآمال على فلذة كبدهما . فلم يجدا اقرب الى رغائبهما من مدرسة جميعة القديس منصور دي پول الخيرية ، القائم بادارتها اخوة المدارس المسيحية ، الذين عُرفوا بالغيرة والمقدرة على تهذيب الاحداث ، وحسن الاسلوب في تلقين العلوم .

في بيروت

دخل رشيد المدرسة برغبة ونشاط ، ممزوجين برهبة وحياء ، شأن الصغار الذين لم يروا بعد الا مدرسة القرية بحجرتها الوحيدة ، او سندياتة القرية وظلها الوارف. فهاله عدد التلامذة وكثرة الصفوف . لكنّ ثوب الاساتذة ولطفهم ، والنظام والسكون السائدين ، أثرت في نفسه ، وازالت عنه الاضطراب.

وكان ما تعلّمه من العربية كافياً للفت الانظار اليه ، لحسن القائه وسرعة خاطره ، ورنّة صوته العذبة ، والوقار الممزوج بشيء من التصنّع ، البادية آثاره في شخصه . لكنه كان مقصراً باللغة الافرنسية ، لا يكاد يفهم ما يُقال له . أما ما اتصف به من العزم والنشاط فذلّل امامه كل الصعاب . فسار في دروسه احسن سير. فقوّم بزمن يسير ما اعوجّ من لفظه في الافرنسية حتى أصبح ينطق بها كأحد ابنائها الخلّصاء ، وكثيراً ما ظنّه الافرنسيون أحد مواطنيهم.

الدعوة الالهية

وسرعان ما ادرك الفتى رشيد ، بذكائه الحادّ ، أنه لم يخلق لامور هذه الدنيا ، لشدة كرهه لملذاتها الزائلة ، وميله الشديد للتقوى واعمال البرّ ، وخوفه من المهاوي واسباب الفساد التي كان يشاهدها كل يوم ، ولا سيما ما رآه في اساتذته الاخوة الافاضل من الغيرة والصلاح ، وتقديره عملهم التهذيبي الشاق حقّ قدره . فلذا أخذ يسير سيرة مثلى ويطيل صلواته ويمارس الاسرار بتواتر . واخيراً بعد استشارة الرب في داخله واصغائه لصوته تعالى يدعوه كصموئيل في الهيكل ، ليتكرس له وحده ، توسّل الى استاذه ان يسهّل له سبيل الانضمام الى الرهبانية التي كانت تزداد قدراً في عينيه .

فاكبر والد رشيد الامر وظهر استياءه ، وتصلّب بعدم السماح له . وحاولت الوالدة صدّه بدموعها وبكلامها الممزوج بالتوبيخ ، ناسبة اليه قساوة القلب وعدم حبه لوالديه ، اذ آثر الابتعاد عنهما على السكنى مع مصدر حياته، وأحب الناس اليه . وثار ثائر الوالدين لمجرد الفكر انه ستفلت تلك الدرّة

الثمينة من ايديهما ، ويخسرانه ، على زعمهما ، خسراناً ابدياً .

لكنه فات الوالدة الحبيبة ان الله أولى أن يُطاع ، وانه تعالى مالك مقاليد القلوب . . . واخيراً غلب الايمان الحيّ ، الحب الوالدي ، وحنى والدا رشيد الرأس امام المشيئة الالهية الداعية . وبدا ذلك بحق شرفاً لهما وواجباً يقتضي القيام به . فسافر رشيد الى بيت لحم ، حيث هو دير ابتداء الاخوة ، وهو لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره .

الراهب

كلمة راهب مشتقة في امتنا العربيـة من رَهِبَ اي خاف وتخشع . وفي اللغات الاوربية المشتقة من اللاتينيـة تفيد الاعتصام والاتحاد (*relict*) . اذ ان كليهما يدلّ على التشبث والارتباط . وان الرهبة ، ولاسيما الرهبة البنوية الصادرة عن الحبّ وتحاشي مـا لا يروق المحبوب ، توثق عرى المحبة وتفيـد الاتحاد . وهذه هي لا سواها ، تلك الرهبـة التي يسير بحسبها الذين تكرسوا لخدمة الله في الرهبانية .

وما اسخف ما يتشدق به البعض من ان الانضواء تحت لواء القانون الرهباني المقدس والصارم ، متسبب عن احتياج أو هرب من الفقر وطلب للراحة وعيشة الكسل المقوت . وانا لا اعرف أحداً ينصب ويتعب اكثر من الرهبان ، ويشهد بذلك كل عاقل خبير .

فرشيد عطاالله لم يكن مُعوزاً ، ولا محتاجاً الى الالتجـاء الى دير ليعيش فيه . بل بعكس ذلك ، كان يرى الدنيا تبسم له وتبشره بمستقبل يُحسد عليه . لكنه أنصت الى التعاليم الالهية الخفية ، التي كانت تناجي نفسه . فلبى النداء الالهي ، وهو غـير جاهل ان الراهب ، ولاسيما الصالح ، هـدف لنبال من لم يُعطَ لهم ان يدركوا اسرار النعمة الالهية . فكلهم عيون عليه يجسسون خطأه اذا زلّ ، او خيل لهم انه زلّ ، ويغمطون حقه من الثناء مهما احسن العمل . وما ذلك سوى تدبير ابليس بقصد جذب الراهب الى العودة الى عالم الاباطيل وصده عن مواصلة السير في سبيل النعيم الدائم . . .

وعلى كل فالراهب شهيد . واستشهاده، وان بطيئاً، فهو أليم طويل المدى . . . وقد دُعي رشيد عطا الله للسلوك في منهج هذا الاستشهاد في الحياة الرهبانية ، فكان شهيد الواجب ، والطاعة المذلّة للكبرياء ، شهيد العفّة الملائكية !! وقلّ من يفقه معنى هذا التبتّل ان لم يكن فيه روح الله الطهر ، وعفاف سلطانة البتولين مريم ام الله ، شهيد الفقر الاختياري ، والازعاج الناتج عن العجز عن التصرّف بما يشاء وكما يشاء ؛ وبكلمة جامعة شهيد الامانة على النذور التي ابرزها .

عرفت الاخ ساروفيم سنين عديدة ، وكنّا اذ ذاك في ربيع الحياة ، وميعة الشباب . فتعلّمت منه ، رحمه الله ، معنى العفاف رغم هيجان الاهواء ، ومعنى الطهر إبّان معركة تجارب هذا العالم الفاسد . . . فكان مُخلقاً في عالم الارواح والطهارة البتولية ، مثابراً على الجهاد الروحي ، الذي تتراءى امامه الضحايا العديدة ، جُبناً وضعفاً . ومن كانت نفسه تفيض طهراً ، ويضوع عطر عفافه شذى طيباً ، لا يقوى الا ان يُشرك بكثره الآخرين . فلذا نرى الاخ ساروفيم يكتب في جملة النصائح للعطلة المدرسية :

« اياك والكتب الرديئة فهي آفة العقل والقلب . اياك والاصحاب الاردياء فانهم رُسل الشيطان . لا تنم وضميرك ملطّخ بخطيئة . قبل النوم افحص ضميرك واندم على سيّئاتك . أذكر انك دائماً في حضرة الله ، فاياك ان تهين جلاله المقدسة بارتكابك الخطيئة . . . »

وحتى يومنا هذا لم يزل تلامذته ، وهم كثيرون ، ولاسيما الذين كانوا منتمين الى اخوية العذراء التي كان هو رحمه الله مدبّرها ، يسمعون من صوته الرنّان الرصين ما كان يردّده عليهم : كونوا اعفّاء تكونوا اقوياء وشرفاء وتُسعدوا وايضاً : من كان له الربّ حارساً فمبثاً تحيق به الشرور ، وتساوره جيوش البلاء ، لانه على صخرة لا يتزعزع وفي معقل لا يطمع به طامع . .

في بيت لحم

اسم عذب على قلب كل مسيحي ، يُنتقل بالفكر ، عند ذكره ، الى تلك البقعة المباركة ، مهد الديانة وأقدس الارضين . بيت لحم الجميلة ، والطيبة المناخ ، قائمة على منحدر اكمةٍ تطو عن سطح البحر ٨٣٠ متراً .

يرى الوافد اليها من القدس ، بناء مستطيلاً في اعلاها ، ينتهي بما يشبه قُلكاً ، هو كنيسة مركز شركة الطفل يسوع الرئيسية ، والبناء هو دير ابتداء اخوة المدارس المسيحية ، تحيط به روضة غناء ، تُطلُّ على جبال فلسطين وشرقي الاردن ، وبحيرة لوط او البحر الميت ، وآكام بادية التيه اي طريق مصر ... وقد نُصب منذ قليل تمثال الطفل يسوع فوق برج يطو ٢٤ متراً عن سطح الارض ، فيرى بلونه الذهبي كمنارة تُرشد الوافدين الى مدينة داود .

بنى هذا المعهد المرحوم الاخ ايڤكر (Fr. Evagre) ذلك الشيخ الباسم ، والافرنسي الشرقي ، لا بل الفلسطيني اللبناني ، الذي أحبّ شبيبة بلادنا وطقوسنا الشرقية الجميلة الى حد انه كان يتعصّب لها ، ويعدُّ المعتدين على عوائدها وتقاليدها وحقوقها ، لصوصاً اغبياء ، حتى ولو كانوا من بني قومه .

هناك في بيت لحم ، استقبل الاخ ايڤكر الفتى رشيد عطا الله ، وكان له كما كان لكلّ من تثقفوا في ذلك المعهد ، أباً حنوناً ، يُنسي أو يعزي المبتدئين الجدد عن حنان الوالدة الحبيبة . فيعطف على الصغير ويتبناه ؛ « اذ من دأب الشيخوخة ان تحنو على الطفولة ، لانها ترى ذاتها ، بانعكاس نور الحداثة ، فكأنها عادت هنيهة الى سالف عهد محبوب »

(له صلة)